كل هذا الخوف السوري

الكاتب : فاديا لاذقاني

التاريخ : 21 إبريل 2013 م

المشاهدات : 11705

قبل عشرين عاماً أو يزيد، نشرَتْ مذكّراتِها عن السجن، فتاةٌ سوريةٌ اعتُقلت في ريعان الصبا. في أوراقها، على ما قيل لي، تُشكِّك هبة الدباغ –وهذا اسمها– فيّ، أنا السجينة معها في مزدوجة رقم 2، من الجناح الشمالي لسجن فرع كفرسوسة «أمن» الدولة، في عاصمة بلد الخوف.

«اكتبي، ردّي عليها» «يجب أن تفعلي، فهي نشرت كتابها على الملأ»، قال لي غير مرةٍ، بعضُ أصدقائي المحبين.

عمّ أكتب؟ أرأيتم «هبة» وعاشرتموها؟

هبة، الطفلة الجميلة، صاحبة العينين الذابلتين سقماً وحزناً وجوعاً، والصوت الشفاف كأنه كريستال قصيّ الرهافة، تخشى انكساره كلَّ لحظة.

هبة، من أرقّ من يمكن للمرء مصادفتهم في حياته، وأكثرهم مدعاة للإشفاق.

بعد أيامٍ من حلولي عليهن، العاشر من تشرين أول (اكتوبر) 1981 واحتلالي لمساحةٍ لم تكن موجودةً حقاً، بل خلقنها من تزاحم إضافيّ قُسرن عليه، مساحة لم تكن تتجاوز أقلّ من نصف متر مربع، لِصْقَ «المرحاض» تماماً، أكوّر فيها بعضي على بعضي «أسيِّف» للنوم ليلاً.

قالت لي «م» إنّ أهل هبة قضوا جميعاً تحت ركام بيتهم في حماة (قُبَيل مجازر 1982).

وأوصتني ألا ينزلق لساني فأتلفظ بشيءٍ من هذا على مسمع من هبة، التي كانت الوحيدة على غير علمٍ به!

لم أفكّر، لحظةً واحدةً أن أكتب رداً.

كيف لي ألا أتفهم خوف هبة مني؟

أنا المختلفة السافرة، والأهم من كلّ ذلك، الوحيدة التي كانت زياراتي، منتظمةً ووفيرةً، بحكم علاقة قديمة تجمع أقرباء لي بمدير السجن، إلى ما يُقال عن تفريق النظام، لعلّةٍ مدروسةٍ، بين السجناء «الشيوعيين» وسجناء بقية الأطراف الأخرين.

كم أحرجتني عيونهن، وأنا أعود من الزيارات، ولكن كيف أحرم أمي وأختي منها، إن لم أفكر بنفسي؟ هذا في الوقت الذي كان يظنّ أهل جلّ من معي أنهن في عداد الأموات؟

تراكمت السنون والأيام، لم أُكِنّ، خلالها، لهبة غير التعاطف والإشفاق والقهر على مصيرها ومصير أهلها، وتلمّس الأعذار لها في «خوفها» مني.

فما أسهل أن يقع السوري، وبخاصة من ضعف وأفقدته المجازر كل بصيرة، في حبائل «الخوف السوري»، الذي يرضعه مع حليب أمّه، ويتنشّقه مع الهواء؟

الخوف. الخوف من فقدان العمل، الخوف من سجن أو تشريد العائلة، خوف كثُرٍ ممن نجوا من السجن الاقتراب من الحدود، أن يرجعهم عناصر «الأمن» إليه.

الخوف من موعد مراجعة الاستخبارات الدوري، أن تدخل باب فرع «الأمن» ولا تخرج.

الخوف من سائق تاكسي، زلّ لسانك أمامه بما لا يُفصح عنه، أن ينتهي بك المشوار إلى فرع «أمن»، فتقبع فيه ما شاء للظلم أن يفعل!

الخوف. الخوف من الجار، الخوف من زميل الدراسة، الخوف من زميل العمل، بل وأحياناً، الخوف من الأخ والأخت.

وأخيراً، خوف النفس من نفسها، كما قال لي أحد قدامى نزلاء مهجع السلّ في تدمر «أنام وحيداً، أخشى من نفسي أن يتلفظ لساني بأشياء مما يرى النائم، فيسمعني أهل بيتي!».

ثم حدثت الثورة. هل صدفة أن فجّرها أطفالٌ لم يتمثلوا بعد تماماً الخوفَ، كما كبارهم، في بلد الخوف؟

أوّلَ مرة، منذ اثنين وعشرين عاماً، تاريخ نجاة أخي من جحيم العالم السفلي، أسمعه يصيح على الهاتف بنبرةٍ كأنها تشق عنان السماء: – باركي لنا، باركي لنا، لقد تجاوزنا الحدود السورية منذ خمس دقائق!

لنا الآن التدرب على التهاتف من دون تلغيزٍ وسعيٍ لاستبدال الكلمات الحساسة «استخبارات، أمن، موافقة أمنية على السفر»... بأخرى يفهمها من عاش في بلد الخوف، أو من غادره وما زالت أسرته، وأحباؤه وأصدقاؤه فيه.

يقول بعضهم إن الناس لم يعودوا يخافون في سورية.

ما القول إذاً في الحذر، برغم الرغبة، من حضور جنازة شهيدٍ قضى في الاعتقال؟

أليس الخوف ما يمنع كثيرين ممن لهم أسر وأطفال أن ينشقوا عن الجيش وبعض أركان النظام؟

أليس الخوف ما يمنع كثيرين من مجاهرتهم بعدائهم له في أماكن كثيرةٍ من سورية؟

ولماذا يُجبر الناشطون السلميّون على التخفّي في الداخل، أو التشرد في المنافي؟

لماذا يتخذ كثيرون أسماء وهميةً حتى في العالم الافتراضي؟

لماذا يمتنع بعضهم عن نشر بعض المواد، إن لم يكن خوفاً على أنفسهم، فللخوف كل الخوف المعشش في الصدور على أحبائهم وأقربائهم؟

صحيح أن الثورة أطلقت عقال كثير من الألسن، ووحّدت الجسد الواحد بأجساد الآخرين وقت التظاهرات، في تحدٍّ خارق

للموت، كأبطال الأساطير.

ولكن، لعمري، لستُ معتقدةً البتة بأن كل السوريين تحرروا من خوفهم السوري، الذي يسمونه، بمفارقةٍ كلامية تراجيدية-كوميدية: «الخوف الأمني».

لهذا التحرر تلزم أجيالٌ وأجيالٌ سيتحادث أطفالها يوماً: أمعقول أنّ أهلنا وأجدادنا في سورية كانوا يخافون كل هذا الخوف؟

أما عن الراهن، فليتني، ثم ليتني، ثم ليتني أكون مخطئة.

الحياة

المصادر: